الفلسطينية، والبطل الفلسطيني... الزمان والمكان الفلسطينيين. ثم تلك المغامرة الفنية الصعبة التي قفز بها عمراً في مسار تطور الرواية الفلسطينية، متكئاً على الواقع الفلسطيني والرمز معاً، ناسجاً رحلة الفلسطيني من المنفى إلى الثورة.

■ ■ ■

الارض والانسان الفلسطيني

من الارض تبدأ رحلة غسان كنفانى الروائية، وفيها كانت تطمح أن تنتهي؛ فهي تتوازى مع رحلة الانسان الفلسطيني، من الارض إلى المنفى الذي ظلت فيه الارض محمولة في الذاكرة، ينأى عنها فيقترب منها.

أبو قيس «رجال في الشمس» ينأى عن الارض، لكنه إذ يمنح صدره لتراب الأرض البعيدة، فإن قلبه يخفق بدبيب الارض الاولى، المفقودة. «أراح ابو قيس صدره فوق التراب الندي، فبدأت الارض تخفق من تحته: ضربات قلب متعب تطوف في ذرات الرمل مرتجة ثم تعبر إلى خلاياه» (ص ٣٧). وليست الارض قريبة من القلب، لكنها متوحدة فيه تخفق مع خفقاته، وتستمد رائحتها من تلك الالفة الحارة التي يستنشقها الرجل في المرأة المعشوقة غب اغتسالها بماء بارد.

هذا الاقتراب من الارض المفقودة، يتسامى بها عن المسافات، ليحرقها بالذاكرة والحلم. فنسيج رحلة الانسان الفلسطيني يبقى متمحوراً حول الارض. كل الافعال، الاحلام، الهواجس، الطموحات، يظل محورها الارض. وحتى الموت فإنه لا يكتسب معناه بعيداً عن الارض ، فيصبح مجانياً ورخيصاً حينما يكون خاتمة الرجال في رحلتهم الطامحة إلى إيجاد بديلهم الوهمي للارض. ومن هذا النهيج الواقعي، يستمد غسان كنفاني خيوطه لينسج كلماته في تمحورها حول الارض.

وكما اشتم ابو قيس رائحة المرأة في الارض، فإن حامد «ما تبقى لكم» أحسها هو الآخر امرأة، عذراء، ترتعش تحت جسده.. «فغرس أصابعه في لحم الارض وذاق حرارتها تسيل إلى جسده، وبدا له انها تنفست في وجهه فلفح لهاثها المستثار وجنتيه، وشد اليها فمه وانفه، فاشتد الوجيب الغامض...» (ص ١٦٩).

لكن فعل الارض، الذي غاب عن الرجال الذين قتلتهم أراضي الغربة، يتبدى لحامد الهارب من الارض اليها، والغارق في جوفها الصحراوي ليبقى فيها، ومن قلبها يدرك فعالية فعلها الخفي.. «أرض خصبة مزروعة بالوهم والمجهول تتكسر كل انصال الفولاذ في العالم إذا مرت فوق صدرك الاصفر العاري، صدرك الأجرد الممتد إلى أبدي وإلى آبادهم، والسابح بجلال في بحر من العتمة، كل انصال الفولاذ في العالم ليس بمقدورها أن تحصد من فوقك عرقاً واحداً. ولكنها تتكسر، واحداً وراء الاخر، حتى ليتحول هو ذاته إلى عرق مجهول مشرش يستقي منك انتصابه وخطواته» (ص ١٧٩، ١٨٠).